

يعد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب اول من من ادخل نظام الديوان الى الدولة العربية الاسلامية بعد ان اصبحت المدينة عاصمة دولة مترامية الاطراف عظيمة الموارد، مما حتم ظهور انظمة ومؤسسات تتناول تنظيم موارد الدولة ووجوه الانفاق عليها، ولم تلبث تلك النظم ان تطورت تبعاً لحاجة الدولة واستجابة للظروف التي طرأت على حياة المجتمع خلال العصر الأموي فظهر عدد من الدواوين اختص كل منها النظر في شأن من شؤون الدولة.

أ- ديوان الجند:

كان ديوان الجند او يوان العطاء قد وجد منذ خلافة عمر بن الخطاب، فقد أكد المؤرخ الطبري ذلك وقال انه فرض الفرض للمسلمين ودون الدواوين في العام الخامس عشر للهجرة ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم، فتم وضع ديوان الجند او ديوان العطاء على ثلاثة أسس في مقدمتها أساس النسب والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أساس السبق في الإسلام ثم التفضيل في الشجاعة والبلاء في الجهاد، وقد ظلت هذه الاسس معتمدة خلال العصر الأموي مع بعض التطورات البسيطة التي ادخلها بعض خلفاء الأمويين وولاتهم من حيث زيادة عطاء بعض الفئات من الموالي، كما حاولوا تغيير التنظيم العسكري واصلاحه عن طريق مزج القبائل وربطها برابطة جديدة اكثر قوة من رابطة القبيلة، كما وضح ذلك من محاولة أسد القسري سنة (١٠٧هـ) بنقل الجند من البروقان الى بلخ، فقد كان الجند في الأولى منقسمين الى أخماس أما في بلخ فقد خلطهم وأسكنهم دون أخذ التقسيم القبلي بنظر الاعتبار كما اتخذ الخليفة هشام بن عبد الملك موقفاً عملياً حين أمر واليه الجنيد بن عبد الرحمن بأن يسقط من الديوان (العطاء) أسماء المقاتلة الذين يرفضون القتال، وأمره بأن لا يضغط عليهم لأنه سيرسل اليه مقاتلة غيرهم يرغبون في القتال.

في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض) بين احكام الجزية والخراج وعشور الارض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في مصر وبلاد الشام، وكان وراء هذا الاختلاف اللغات التي كانت الدواوين تكتب بها في الاراضي المفتوحة، فعزم عبد الكل على اعتماد نظام موحد في الدولة العربية الاسلامية، وأعطى أوامره الى اعماله في الأقاليم للقيام بمهمة تعريب الدواوين

ب- ديوان الرسائل:

يختص هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من أقاليم الدولة العربية الاسلامية، ولم يكن له وجود في عصر الخلفاء الراشدين وإنما استحدثت في عهد معاوية بن ابي سفيان، كان القائم على هذا الديوان يختار من الرجال المعروفين بأمانتهم وعلو مكانتهم وخلص اسرارهم كما ان هذا الديوان كان يشرف على الرسائل الموجهة من الخليفة الى عماله، وقد تعددت اختصاصاته بمرور الزمن وتزايد عدد العاملين فيه، فكان بعضهم يقوم بالإنشاء والبعض الآخر يساعد في التلخيص والتبويض، كما اصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الاشراف عليها موظف خاص يعرف بالخازن، فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في سجلات او مغلفات خاصة تعرف بالأضابير، توضع عليها بطاقات توضح محتوياتها ليسهل استخدامها والرجوع اليها

ج- ديوان الخاتم:

يعد ديوان الخاتم من اكبر الدواوين التي عرفها العصر الأموي، ويرجع انشاءه الى معاوية بن ابي سفيان الذي حرص على ان لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من اسرار احد سوى الخليفة وحده ولا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير والتعديل، ويشير الطبري الى الاسباب التي دفعت معاوية الى ختم الكتب الصادرة عن الخليفة، فذكر ان معاوية كان قد امر لعمر بن الزبير عند زياد بن ابيه بالكوفة بمئة الف درهم، ففتح بها عمر وحبسها حتى قضائها عنه اخوه عبد الله بن الزبير، فاتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم من قبل واسند معاوية ديوان الخاتم الى عبد الله بن محصن الحميري حسب رواية الطبري في حين يذهب السيوطي الى القول بأنه ولي عبد الله بن أوس الغساني مهمة الإشراف على ديوان الخاتم

بان معاوية وقد ضم هذا الديوان عدداً من الكتاب القائمين على انفاذ كتب الخليفة والختم عليها اما بالعلامة او بالحزم، وكان الحزم يتم عن طريق لصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب، وقد يجعل على مكان الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه كما كان للخليفة ختم خاص قد يستعمله للأمور المهمة والخاصة من أجل الحفاظ على سريتها.

د- ديوان البريد:

كان الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أول خليفة ينشئ نظام البريد وذلك عندما اتسع نطاق الدولة، واصبح من الضروري نقل الرسائل وتسهيل الاتصال السريع بين العاصمة وأقاليم الدولة المختلفة، اي ان البريد لم يكن يستخدم من قبل الرعية في نقل رسائلهم إلا بعد حين، فمهمة ديوان البريد الأولى نقل الاخبار بين الولايات الى الخليفة بما يجري هناك تفصيلاً، كما انه كان يتولى ينقل حاجيات الدولة ويشرف على المسالك والطرق ويرسم الخرائط المناسبة للأقاليم

ومن اجل تسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وعماله في الامصار كانت توضع مضمورات الخيل في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب فرساً مستريحاً، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يؤمن وصوله الى المكان المقصود بسرعة

القضاء:

كان القضاء في العصر الأموي بسيطاً كما كان الحال عليه خلال عصر الخلفاء الراشدين ذلك ان المذاهب الأربعة لم تكن قد ظهرت بعد، فكان القاضي يعتمد على الاجتهاد في الاحكام مستعيناً في ذلك بالكتاب والسنة والاجماع والقياس.

وقد انقسم القضاء في العصر الأموي الى قضاء شرعي وقضاء مدني، فكان القاضي الشرعي يستمد احكامه من مصادر الشريعة الاسلامية، أما القضاء المدني فيتولاها المحتسب وكثيراً ما جمع القضاة الشرعيون بين السلطتين الشرعية والمدنية، أما القضايا التي يستعصي حلها على القاضي الشرعي فكان يفصل فيها قاضي المظالم الذي تفوق سلطته القضائية سلطة القاضي والمحتسب وقد أقر خلفاء بني أمية ديواناً خاصاً للنظر في المظالم، ويرجع الفضل في نشأته الى عبد الملك بن مروان. فكان إذا وقف على مشكلة احتاج فيها الى حكم منفذ ردها الى قاضيه ابي إدريس الأزدي فينفذ فيها احكامه

اهتم عمر بن عبد العزيز اهتماماً كبيراً برد المظالم الى اصحابها فبدأ بنفسه ثم بأهله وأقاربه فقلص مصاريف الخلافة وجلس على الحصر. ووزع مزارعه وردّ بعضها على ما كانت عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وصادر أموال وحلي زوجته فاطمة بنت عبد الملك ووردها الى بيت المال، وردّ مظالم بني أمية على أهلها، ونظر بالمظالم الشخصية والمظالم العامة التي تخص أهالي بلد بأكمله كإخراج المفروض على أهل اليمن من واليها محمد بن يوسف الثقفي وقد أمر عمر بأن يأخذ عليها العُشراو نصف العُشراو سكه الحجاج بن يوسف الثقفي، وتعد العملات التي سكتها عمال بنو أمية في العراق أجود العملات التي عُرفت بأسمائها، مثل: الهبيرية، الخالدية واليوسفية

الطراز:

عرفت مصانع النسيج بدور الطراز وهي لفظة فارسية معناها تطريز وعمل المديج او الشريط الكتابي الذي ينسج في لحمة الثوب وسداة ثم تطورت هذه اللفظة حتى اصبحت تعني المصنع الحكومي الذي تصنع فيه الثياب ولم يدخل الأمويون اي تغيير جوهري على صناعة النسيج السابقة على الاسلام، واكتفوا بإضافة الكتابة العربية التي تشير الى اسمائهم مع كلمات اخرى تجري مجرى الفأل او السجلات وكانت الدور المعدة لنسيج الأثواب الخلفية تسمى دور الطراز الخاصة، تميزاً عن دور طراز العامة التي تتولى صناعة ثياب الرعية وكان يتولى النظر على هذا الدور موظف يسمى صاحب الطراز ويتولى الاشراف على امور الصباغ والأنوال الحاكة الذين يعدون الحلل والبرود وغيرها، وفي تأمين أرزاق العمال ومن المعروف ان صناعة النسيج كانت قد ازدهرت في مصر قبل الاسلام، وكان الأقباط هم الذين برعوا في هذه الصناعة حتى اطلق العرب على المنسوجات المصرية اسم قباطي وقد عملوا على الافادة منها في كسوة الكعبة، ومنح الخلع، كما أدى ذلك الى نهوضهم بهذه الصناعة ودفعها الى الأمام، وقد وجدت صناعة النسيج اهتماماً وتشجيعاً من لدن خلفاء بني أمية، ففي عصر سليمان بن عبد الملك شاع نوع من الترف والتأنق في الزي حيث فرض على رجاله وأهل بيته وخدمه ارتداء الموشى لشدة ولعه بهذا النوع من النسيج الذي تدخل فيه خيوط الذهب ويعرف ايضاً المقصب، وفي عهده عمل الموشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية، ولبس الناس جميعاً الموشى جباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس

الجيش:

كان الجيش خلال القرن الأول للهجرة يتكون في أساسه من العنصر العربي بحكم ان العرب هم مادة الاسلام، إلا ان ذلك لم يكن حائلاً دون مشاركة بعض العناصر غير العربية التي دخلت الاسلام كالفرس والروم وغيرهم من سكان المناطق الشرقية، مثل بخارى وسمرقند وفرغانة وقد مُنح هؤلاء حقوق المقاتلة العرب نفسها من حيث العطاء والرزق من أجل كسبهم للإسلام، كما سمح لهذه العناصر بالتحالف والارتباط بأية قبيلة شاءوا او الاحتفاظ باستقلاليتهم، هناك فئة اخرى ضمن عناصر الجيش في العصر الأموي هي الموالي العتاقة اي الرقيق الذي أُعتقوا من الدولة او من قبل أسيادهم لأسباب عديدة، ولم يكن لهذه الفئة نصيباً في العطاء بل انهم اذا اشتركوا في المعارك مع أسيادهم الذين تربطهم بهم رابطة الولاء يأخذون نصيبهم من الغنائم فقط، كما ان بعضهم كان يفرض لهم في العطاء إلا ان عطائهم كان أقل من عطاء المقاتلة العرب، ومن الملاحظ ان السلطة الأموية اتجهت الى زيادة عطاء هذه الفئة من الموالي والجدير بالذكر ان المؤسسة العربية الاسلامية طوال فترة الاسلام كانت تعتمد على مبدأ الأمة المقاتلة الذي اثبتت فاعلية كبيرة خلال عصر النبوة والخلافة الراشدة، إذ ان المقاتلين كانوا يقتلون من أجل العقيدة الاسلامية ويعدون ذلك جهاداً في سبيل الله لنشر الاسلام وتوسيع رقعة الدولة العربية الاسلامية. أما في العصر الأموي فقد حرص الخلفاء وولاتهم على الأمصار على أن يربطوا مصلحة القبائل العربية المقاتلة ولا سيما في بلاد الشام بمصلحة عناصر الجيش، غير ان نجاح السلطة المركزية في الأقاليم البعيدة عن مركز الدولة كان يتوقف الى حد كبير على خلق الظروف والاضاع التي تحفز المقاتلين على المشاركة في الحرب وذلك من خلال توثيق العلاقة الجيدة بين الولاة ورؤساء القبائل هناك كذلك عمد خلفاء بني أمية على انتهاز سياسة خاصة في الشام، فجعلوا في كل جند من بلاد الشام قبيلة معينة فسكن في جند قنسرين قبائل قيسية في غالبيتها، أما جند دمشق فقد كانت غالبية عليها قبائل كلب وجماد. في حين كانت اليمانية غالبية على جند حمص، وقد كان لهذا الاجراء أثراً في إبعاد القبائل ولو لفترة محدودة عن الصراعات الداخلية ومكنت الخلفاء الأمويين على ان يحفظوا التوازن بين هذه القبائل. وقد أشار الطبري الى ان بعض خلفاء بني أمية او وولاتهم قد قاموا بمحاولات لتغيير التنظيم العسكري المعمول به واصلاحه عن طريق دمج القبائل وربطها برابطة جديدة اكثر قوة من رابطة القبيلة، فذكر ان الوالي الأموي أسد القسري حاول سنة (١٠٧هـ) نقل الجند من البروقان الى بلخ وأسكنهم في هذه المدينة دون الأخذ بالتقسيم القبلي، حيث كان الجند في البروقان منقسمين الى أخماس كذلك بذل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك جهوداً كبيرة من أجل التخفيف من أثر النفوذ القبلي عندما أمر نصر بن سيار بن عبد الرحمن بأن يسقط من الديوان (العطاء) أسماء المقاتلة الذين يرفضون القتال وأمره بأن لا يضغط عليهم، وانه سيوجه اليه مقاتلة جدد ممن يرغب في القتال. مما يؤكد ادراك الخليفة بوجود بعض المقاتلة ممن لا يرغبون في القتال وليس للسلطة ان تحملهم على ذلك

ولا شك ان غياب الجيش النظامي الدائم والمرتبب بالدولة قد جعل الخلافة الاموية تخضع لميول وأهواء شيوخ القبائل في أقاليم الدولة المختلفة، غير انه لا بد من الإشارة الى وجود وحدات شبه نظامية دائمة في العصر الأموي مثل كتيبة الحرس الخاص بالخليفة التي اطلق عليها معاوية اسم (الغمامة). هذا بالإضافة الى الكتائب التي كانت ترابط في المدن المهمة كما ظهرت أواخر العصر الأموي كتائب بأسماء قادتها وكانت أقرب الى الفرق العسكرية النظامية وكان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قد أدخل نظام الكراديس او الكتائب إلا ان الوالي الأموي أسد القسري حاول سنة (١٠٧هـ) نقل الجند من البروقان الى بلخ وأسكنهم في هذه المدينة دون الأخذ بالتقسيم القبلي للمقاتلة بدلاً من الصفوف، ويعني هذا النظام من التعبئة العسكرية تقسيم الجيش الى خمسة أقسام رئيسية، المقدمة ثم الميمنة ميسرة وقلب في الوسط، ثم كتيبة في الخلف وراء الجيش تعرف بالساقية، وكانت هذه الكتائب تعبأ على شكل أهلة أو مربعات أو مثلثات

البحرية العربية الاسلامية (الأسطول):

بعد نجاح العرب المسلمون في تحرير الشام ومصر تطلعوا الى مجارة أعدائهم الروم البيزنطيين في ركوب البحر وبناء الأساطيل وتذكر الروايات التاريخية ان معاوية بن ابي سفيان والي الشام كان قد ألحّ على الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بأن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً لقرنها من الشام، إلا ان الخليفة رفض الاستجابة لرغبة معاوية بعد ان وصف له عمرو بن العاص واليه على مصر البحر وأهواله، فكتب الى معاوية يقول: (لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً) والواقع ان الفضل في إنشاء اول أسطول عربي إسلامي يعود الى الخليفة عثمان بن عفان (رض) الذي إذن لمعاوية في غزو الروم بحراً على ان لا يحمل احداً على ركوب البحر، بل يجعل الأمر اختيارياً. وقد نجح معاوية في تحقيق أهدافه وسعيه لبناء أسطول بحري يضاهي به أساطيل الروم، فقد أقبل العرب المسلمون على ركوب البحر وقد تفوقوا على الروم وغيرهم، وكثر عدد السفن التي كان لها أثرها في اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية وإخضاع العديد من جزر البحر المتوسط وكان لكل سفينة حربية قائد او مقدم له القيادة فيما ما يختص بسفينته في البحر وعليه تقع مسؤولية تدريب الجند وإعدادهم للقتال، وكان قائد الأسطول يدعى بأمر البحر وتشير المصادر الأوروبية الى ان الاصلاحات البحرية العربية المستخدمة في اوروبا لا تزال تحتفظ بعربيتهما وقد شاع على ألسنة البحارة في جنوب أوروبا، الواقع ان معاوية بن ابي سفيان أبدى اهتماماً كبيراً بالبحرية العربية منذ ان تولى الخلافة سنة (٤١هـ) فحرص على تدعيم الدفاع عن السواحل العربية ضد الغارات التي كانت تشنها الأساطيل البيزنطية، فأولى اهتماماً بتقوية وسائل الدفاع والحراسة الساحلية كالمحارس والمناور او المناثر او المواقيد الممتدة على سواحل مصر والشام، فكان على المرابطين في هذه المواقع إذا ما اكتشفوا عدواً في البحر مقبلاً من بعيد أشعلوا النار على قمم المناور او المواقيد إذا كان الوقت ليلاً او أثاروا فيها الدخان إن كان الوقت نهاراً بالإضافة الى استخدامهم الطبول والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو، وكذلك قام معاوية بنقل أهالي البلاد الداخلية الى هذه الجهات الساحلية ومنحهم الاقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة وتعمير البلاد وزيادة عدد سكانها من جهة اخرى، فقد روي البلاذري ان معاوية نقل قوماً من أهل بلعبك وحمص الى سواحل الأردن وصور وعكا، كما نقل أقواماً من أهل البصرة والكوفة الى أنطاكية في شمال الشام

المصدر: الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك .